التَّاريخُ في القُرآنِ الكَريمِ: مِن منطقِ الحدثِ إلى منطقِ السُّنَنِ

◆ **الشيخ حسين محمود كوثراني**[٢]

■ **خلاصة**

تنطلق هذه المقالة من فكرة أساس مفادها أنَّ القرآن الكريم لا ينقل القارئ من حدث إلى حدث، وإنما من حدث إلى سُنّة. أي من الوقائع الجزئية إلى القوانين التي تحكمها. ولذلك، لا يحتلّ التسلسل الزمني والتفاصيل التاريخية مركز الاهتمام في الخطاب القرآني؛ لأنَّ المقصود ليس إعادة بناء الماضي كما وقع، بل بناء وعي لفهم ما يتكرّر في حركة التاريخ.

وفي هذا السياق، تحاول هذه المقالة إعادة قراءة التاريخ في القرآن بوصفه أداة للفهم، وتبيّن كيف يتحوّل الماضي القرآني إلى مرآة يقرأ الإنسان من خلالها حاضره ومستقبله. فالتاريخ في المنظار القرآني تجربة إنسانية تكشف أنَّ الظلم، والاستكبار، والإصلاح، والإيمان، ليست مجرّد قيم خُلُقية، وإنمَّا قوى تصنع مصائر المجتمعات وتوجّه مسارها.

ومن هنا، فإنَّ الانتقال من منطق الحدث إلى منطق السُّنَن يغيّر طريقة فهم الإنسان للتاريخ نفسه؛ إذ يصبح التاريخ مجالاً للفهم والمسؤولية، لا مجرّد ذاكرة للأحداث التي مضت.

الكلمات المفتاحية: القرآن، التاريخ، السُّنَن، القصص، الوعي، العاقبة.

١ - طالب علوم دينية لبناني في مرحلة البحث الخارج، في جامعة المصطفى العالمية، في مدينة قم المشرّفة.

History in the Holy Qur'an
From Event's Logic to Laws' Logic

◆ **Sheikh Hussein Mahmoud Kawtharani**

A Lebanese seminary student of religious sciences at the advanced Kharij level, studying at Al-Mustafa International University in the holy city of Qom.

■ Abstract

This article begins with the premise that the Holy Qur'an does not simply transport the reader from one event to another, but rather from event to precedent; that is, from specific occurrences to the underlying principles that govern them. Therefore, chronological order and historical details are not the central focus of the Qur'anic discourse; the aim is not to reconstruct the past exactly as it happened, but to cultivate an awareness that comprehends the recurring patterns of history.

In this context, this article seeks to reread history in the Qur'an as a tool for understanding, demonstrating how the Qur'anic past becomes a mirror through which humanity can envision its present and future. From the Qur'anic perspective, history is a human experience that highlights that injustice, arrogance, reform, and faith are not merely moral values, but active forces that shape the destinies of societies and guide their course. From this standpoint, the shift from the logic of events to the logic of divine laws transforms humanity's view of history, making it a field for understanding and responsibility, not simply a memory of past events.

Keywords:

The Holy Qur'an, the History, Laws [Sunan], Stories, Awareness, Consequences.

مقدّمة

يحتلّ التاريخ في القرآن الكريم موقعًا مختلفًا عن الصورة التي اعتادها الإنسان في الكتابات التاريخية المألوفة. فالقارئ لا يجد أمامه سردًا زمنيًا متسلسلاً للأحداث، ولا عرضًا تفصيليًا لمسارات الأمم والملوك والتحولات السياسية، بل يواجه طريقة خاصة في استحضار الماضي، طريقة تُختزل فيها التفاصيل أحيانًا، وتتكرّر فيها القصة الواحدة في أكثر من موضع، ويغيب عنها كثير مما يعدّه المؤرخ عنصرًا أساسًا في بناء الرواية التاريخية.

وهنا يبرز سؤال مهمّ: إذا كان القرآن يستحضر الماضي بهذه الكثافة، فلماذا لا يقدّمه بوصفه تاريخًا بالمعنى المتعارف؟ ولماذا لا يهتم بالتسلسل الزمني، ولا باستكمال عناصر الحدث جميعها؟ هل يعود ذلك إلى أنَّ القرآن غير معنيّ بالتاريخ أصلاً، أم أنَّ الأمر يرتبط بطريقة مختلفة في فهم التاريخ ووظيفته؟

إنَّ القراءة المتأنية تكشف أنَّ القرآن الكريم لا يتعامل مع الماضي بوصفه مادة للتوثيق، بل بوصفه مجالاً للفهم والكشف. فالحدث القرآني لا يُعرض لذاته، وإنّما لما يكشفه من معنى يتجاوز حدوده الزمنية. ولذلك، لا تكون القصة مجرّد خبر عن قوم مضوا، بل نموذجًا يكشف العلاقة بين أفعال الإنسان ومصيره، وبين البنية الخُلُقية للمجتمع والعاقبة التي ينتهي إليها.

ويتَّضح اختلاف وظيفة المادّة التاريخيّة في القرآن عن وظيفة الكتابة التاريخيّة المألوفة إذا لوحظت الغاية العامّة التي ينتظم ضمنها الخطاب القرآنيّ كلّه. فالقرآن، وإن استحضر أخبار الأمم والأنبياء عليهم السلام وأحداث الماضي، لا يعرضها بوصفه كتابًا موضوعه تدوين التاريخ

واستيفاء وقائعه، وإنّما يوظّفها ضمن غايته في الهداية. وقد عبرّ (السيد الخوئي) عن هذا المعنى بقوله: "إنّ القرآن أُنزل لهداية البشر، وسوقهم إلى سعادتهم في الأولى والأخرى، وليس هو بكتاب تاريخ، أو فقه، أو أخلاق"[1]. وعلى هذا الأساس، يمكن فهم عدم عناية القرآن باستكمال كثير من التفاصيل الزمنيّة والتاريخيّة؛ إذ لا تكون قيمة الحدث في مجرّد توثيقه، بل في ما يؤدّيه داخل الخطاب القرآنيّ من وظيفة في الهداية والاعتبار وبناء الوعي. ومن هنا، ينتقل القرآن الكريم بالقارئ من سؤال «ماذا حدث؟» إلى سؤال أعمق: «لماذا حدث؟ وما الذي يجعل هذا المصير ممكنًا؟» فالمقصود ليس حفظ الوقائع في الذاكرة، بل بناء وعي يمكن من خلاله قراءة ما وراء الوقائع، أي الوعي بالسُّنن التي تحكم حركة الإنسان والمجتمعات.

ولهذا، لا يظهر الماضي في القرآن بوصفه زمنًا مغلقًا منتهيًا، بل بوصفه تجربة إنسانيّة قابلة للفهم والتكرار. فقِصّة (فرعون) مثلاً لا تُستحضر باعتبارها حادثة سياسيّة من الماضي فحسب، بل بوصفها نموذجًا للاستكبار حين يتحوّل إلى نظام يرفض الحق ويعيد إنتاج الظلم. وكذلك لا تُعرض قصص الأقوام الهالكة بوصفها أخبارًا عن أمم غابرة، بل بوصفها كشفًا عن العلاقة بين الانحراف الداخليّ والانهيار التاريخيّ.

وفي ضوء ذلك، تحاول هذه المقالة أن تقرأ التاريخ في القرآن قراءةً مختلفةً، لا باعتباره مادّة سرديّة، بل باعتباره بناءً معرفيًّا قائمًا على السُّنن. فهي تنطلق من فكرة أساس مفادها أنَّ القرآن لا ينقل الإنسان من حدث إلى حدث، بل من حدث إلى قانون، ومن قصّة إلى وعي، ومن الماضي بوصفه ذاكرة إلى الماضي بوصفه أداة لفهم الحاضر والمستقبل.

أوّلًا: تحديد المفاهيم: التاريخ، والحدث، والسنّة، والعاقبة

قبل الحديث عن التاريخ في القرآن الكريم، من الضروري ضبط عدد من المفاهيم التي

١ - أبو القاسم الخوئي: البيان في تفسير القرآن، ص٩٣.

تقوم عليها هذه المقالة؛ لأنّ كثيراً من الالتباس في فهم الخطاب القرآنيّ عن الماضي ينشأ من التعامل مع هذه المفاهيم بوصفها مترادفة أو متقاربة ومتداخلة في المعنى، مع أنّ لكلّ واحدة منها وظيفة مختلفة تمامًا داخل الرؤية القرآنيّة.

فالتاريخ - في معناه الشائع - يُفهم عادةً بوصفه تسجيلاً لما وقع في الزمن، أي إعادة بناء الأحداث وربطها بسياقاتها السياسيّة والاجتماعيّة والزمنيّة. ولذلك، يرتبط الوعي التاريخيّ في الكتابات البشريّة غالبًا بفكرة التوثيق، وحفظ الوقائع، وترتيبها داخل تسلسل زمنيّ واضح. لكنّ القرآن لا يتعامل مع التاريخ بهذا المعنى وحده، بل يتجاوزه إلى مستوى آخر، حيث لا تكون قيمة الماضي في مجرّد كونه "ما حدث"، بل في كونه يكشف ما يحكم حدوثه.

ومن هنا، يظهر مفهوم الحدث. فالحدث هو الواقعة الجزئيّة المرتبطة بزمان ومكان وأشخاص محدّدين. فهو الجانب الظاهر من التاريخ، أي الصورة التي يمكن روايتها ونقلها وتذكّرها. لكنّ القرآن لا يقف عند الحدث بوصفه مستقلاً، بل يتعامل معه باعتباره مدخلاً إلى ما وراءه. ولذلك، لا يركّز الخطاب القرآنيّ غالبًا على التفاصيل التي لا تغيّر من فهم المصير أو منطق الحركة، بل يختار من الحدث ما يكشف عن بنيته ودلالاته وأبعاده.

أما السُّنّة، فهي المفهوم المركزي الذي يعيد القرآن من خلاله بناء النظر إلى التاريخ. والسُّنّة هنا لا تعني العادة أو التكرار المجرّد، بل القانون الذي تنتظم من خلاله حركة الإنسان والمجتمع. إنّها العلاقة الثابتة بين نوع من الأفعال ونوع من النتائج، بحيث لا تبدو المصائر التاريخية أحداثًا عشوائية، بل نتائجَ ترتبط بمقدّمات وشروط. ومن هنا تصبح السُّنَن الإلهية إطارًا لفهم كيفية تشكّل العواقب، لا مجرّد تفسير ديني للأحداث بعد وقوعها.

ولهذا فإنَّ السُّنَن لا تلغي حرية الإنسان، بل تضع أفعاله الاختيارية في سياق صناعة الواقع. فالقرآن الكريم لا يقدّم الإنسان بوصفه خاضعًا لمسار جبري مغلق، كما لا يقدّمه بوصفه كائنًا يتحرّك في فوضى بلا قانون. بل يتحرّك الإنسان — وفق التصوّر القرآني — داخل عالم له سُنَنه، وتبقى أفعاله جزءًا من الشروط التي تصنع النتائج.

ومن المفاهيم المرتبطة بذلك أيضًا مفهوم العاقبة، وهو من أكثر المفاهيم حضورًا في الخطاب القرآني عن التاريخ. فالعاقبة ليست مجرّد النهاية الزمنية لحدث أو جماعة، بل النتيجة التي تكشف حقيقة المسار كلّه. ولذلك يوجّه القرآن النظر باستمرار إلى "عاقبة" الأمم، لا إلى تفاصيل حياتها اليومية؛ لأنّ العاقبة تمثّل اللحظة التي تنكشف فيها العلاقة بين البنية الداخلية للمجتمع والمصير الذي آل إليه.

وبهذا المعنى، لا يكون التاريخ في القرآن مجرّد ذاكرة للماضي، بل مجالاً لفهم العلاقة بين الحدث والسنّة، وبين الفعل والعاقبة. ومن هنا، لا تعود القصص القرآنية مجرّد أخبار تُروى، بل نماذجَ تُقرأ من أجل اكتشاف القوانين التي تتحرّك من خلالها حياة الإنسان والمجتمعات.

ثانيًا: التاريخ بين الذاكرة والبنية

حين يتعامل الإنسان مع الماضي، فإنَّه يفعل ذلك غالبًا بطريقتين مختلفتين: إمّا بوصفه ذاكرةً تحفظ ما وقع، وإمّا بوصفه بنيةً تكشف كيف وقع ولماذا انتهى إلى ما انتهى إليه. والفرق بين الطريقتين ليس فرقًا في الأسلوب فقط، بل في طبيعة الوعي نفسه. فالذاكرة تهتم بحفظ الأحداث، أمّا البنية فتهتم بالعلاقات التي تنتج هذه الأحداث.

ولذا يبدو واضحًا أنَّ القرآن لا يتعامل مع التاريخ بوصفه ذاكرةً زمنيةً للأمم، بل بوصفه مجالاً للكشف عن البنية التي تتحرّك من خلالها المجتمعات. ولذلك لا يركّز الخطاب القرآني على جمع التفاصيل، ولا على إعادة بناء الصورة الكاملة للوقائع، بقدر ما يركّز على العناصر التي تكشف منطق الحركة نفسه، من قبيل: كيف يتكوّن الظلم؟ كيف يتحوّل الاستكبار إلى نظام؟ كيف ينشأ الانهيار داخل المجتمع قبل أن يظهر في صورته الخارجية؟ وكيف ترتبط العاقبة بالبنية الخُلُقية والعملية التي سبقتها؟

ولهذا، فإنَّ القرآن لا يستحضر الماضي باعتباره زمنًا منتهيًا، بل باعتباره نموذجًا قابلاً للفهم والتكرار. فالقصة القرآنية لا تُروى لكي يعيش القارئ داخل الحدث، بل لكي يرى ما وراء

الحدث. ومن هنا، تبدو الشخصيات والأحداث في القرآن أقلّ أهمية من العلاقات التي تمثّلها. فـ (فرعون) مثلاً لا يُعرَض بوصفه شخصيةً تاريخيةً فريدةً بقدر ما يُعرَض بوصفه نموذجًا للاستكبار حين يمتلك القوة ويحوّلها إلى أداة لإخضاع الإنسان وتزييف الوعي. ولذلك، لا تكون أهمية قصته في معرفة تفاصيل عصره، بل في كشف البنية التي تجعل الطغيان ممكنًا.

وكذلك حين يعرض القرآن قصة قوم عاد، فإنَّه لا يركّز على وصف حضارتهم أو نظامهم السياسي بقدر ما يركّز على التحوّل الداخلي الذي أصابهم، كالقوّة حين تنفصل عن الحق، والثقة حين تتحوّل إلى غرور، والقدرة حين تنتج وهم الاستغناء. فالهلاك هنا لا يظهر بوصفه حادثةً مفاجئةً، بل بوصفه نتيجةً لمسار طويل بدأ من داخل البنية نفسها.

ومن هنا، يمكن فهم سبب تكرّر القصة الواحدة في القرآن في أكثر من موضع. فالتكرار ليس إعادة للحكاية، بل إعادة للهداية. كلّ موضع يكشف زاوية مختلفة من البنية، فمرّةً يبرز منطق الاستكبار، ومرّةً يكشف أثر التكذيب، ومرّةً يركّز على طبيعة الاستجابة للحق، ومرّةً يسلّط الضوء على العاقبة. ولذلك، لا يتحرّك التكرار في القرآن داخل منطق السرد، بل داخل منطق الكشف. بل حتى لو تكرّرت الزاوية نفسها فإنَّها إعادة لتأكيد البنية لا الحكاية.

ولهذا أيضًا، لا يهتمّ القرآن دائمًا بالأسماء والتواريخ والتفاصيل الجزئية؛ لأنَّ هذه العناصر، على أهميتها التاريخية، ليست هي التي تصنع الوعي المقصود. فالقرآن لا يريد من القارئ أن يحفظ الماضي، بل أن يفهمه. والفرق بين الأمرين كبير؛ لأن حفظ الماضي قد يصنع ذاكرة، لكنه لا يصنع بالضرورة قدرة على قراءة الحاضر أو فهم المستقبل.

ومن هنا، يتحوّل التاريخ في القرآن من "أحداث وقعت" إلى "قوانين تتحرّك". فلا يعود الماضي مجرّد أخبار عن أمم بعيدة، بل يصبح مرآة يرى الإنسان فيها كيف تتكرّر الأنماط نفسها بأسماء مختلفة وصور متغيّرة. فالاستكبار، والفساد، والتكذيب، والعدل، والإصلاح، ليست حالات مرتبطة بزمن معيّن، بل قوى فاعلة يمكن أن تعود كلّما تكرّرت شروطها.

وبذلك لا يكون التاريخ في القرآن مجرّد أرشيف للذاكرة، بل بناءً معرفيًّا يهدف إلى نقل

الإنسان من متابعة الوقائع إلى فهم البُنى التي تنتجها. فالمشكلة وفق المنظار القرآني ليست أن الإنسان يجهل ما حدث، بل أن يرى الأحداث دون أن يدرك ما يكمن خلفها من سنن ومعانٍ وعلاقات. ومن هنا، يصبح فهم البنية أعمق من التذكّر؛ لأنَّ الحدث ينتهي بزمنه، أمّا البنية فتظلّ قابلة للظهور كلّما تكرّرت شروطها.

ثالثًا: السُّنن الإلهية ومنطق الحركة التاريخية

وتتّضح هذه الوظيفة المعرفية للنظر في التاريخ في قوله تعالى: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٧]، فالآية لا تكتفي بالإخبار عن مصائر الأمم السابقة، بل تلفت النظر إلى «السُّنن» وتدعو إلى السير والنظر في عواقب الماضين، بما يجعل الحدث التاريخي طريقًا لاكتشاف ما يتجاوز خصوصيته. وقد لفت الشهيد (السيد محمد باقر الصدر) إلى هذه الدلالة، فقال: «تؤكّد هذه الآية على السُّنَن، وتؤكّد على الحث والتتبّع لأحداث التاريخ من أجل استكشاف هذه السنن، من أجل الاعتبار بهذه السُّنَن»[1]. وبهذا لا يكون استحضار الماضي غاية في ذاته، بل يصبح النظر في أحداثه وسيلة للكشف عن القوانين التي تنتظم حركة التاريخ، وهو ما ينقل القارئ من الوقوف عند الواقعة إلى فهم السُّنّة التي تكشفها.

إذا كان القرآن الكريم لا يتعامل مع التاريخ بوصفه ذاكرة للأحداث، بل بوصفه كشفًا للبنية التي تتحرّك من خلالها المجتمعات، فإنَّ مفهوم السُّنن الإلهية يمثّل الإطار الذي تنتظم داخله هذه الرؤية كلّها. فالسُّنَن في الخطاب القرآني ليست فكرة هامشية مرتبطة ببعض الآيات، بل منطقًا يفسّر كيف تتشكّل المصائر، وكيف تنتقل المجتمعات من الصعود إلى الانهيار، ومن القوَّة إلى الضعف، ومن الاستقامة إلى التفكّك.

١ - محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ص٤٧.

والسُّنَّة هنا لا تعني التكرار الآليّ للأحداث، بل تعني وجود قوانين تحكم العلاقة بين أفعال الإنسان ونتائجها. ولذلك لا يبدو التاريخ في القرآن مجالاً للفوضى أو المصادفة، بل مجالاً تتحقّق فيه العواقب تبعًا للمقدّمات التي تصنعها المجتمعات بنفسها. ومن هنا، تأتي دلالة الآيات التي تؤكّد ثبات السُّنَن الإلهيّة، مثل قوله تعالى ﴿**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلا**﴾ [فاطر: ٤٣]، فالثبات هنا لا يعني الجمود، بل يعني أن التاريخ ليس حركة عشوائية.

لكن ما يمنح السُّنَن القرآنيّة خصوصيتها أنّها لا تعمل خارج الإنسان، بل من خلاله. فالقرآن لا يقدّم المصير التاريخيّ بوصفه قَدَرًا مفروضًا على المجتمعات من الخارج، وإنّما بوصفه نتيجة تنشأ من داخلها. ولهذا ترتبط السُّنَن دائمًا بالبنية الخُلُقيّة والسلوكيّة للمجتمع من خلال ارتباطها بطريقة استخدام القوّة، وبنحو العلاقة مع الحقّ، وبطبيعة الاستجابة للعدل أو الفساد أو الاستكبار.

ويكشف القرآن عن ارتباط التحوّلات التي تصيب المجتمعات بما يحدث في بنيتها الداخليّة، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١]. لا يظهر التغيير التاريخي بوصفه حدثًا عابرًا أو منفصلاً عن إرادة الإنسان، بل هو نتيجة مباشرة للارتباط الوثيق بين باطن المجتمع وصلاحه، وبين ما يطرأ على واقعه من تحوّلات. وقد صاغ (العلامة الطباطبائي) هذه الحقيقة ببيان السُّنة الإلهية القائمة على التلازم الحتمي؛ حيث يتدفق الفضل الإلهي بالبركات والنعم —الظاهرة والباطنة— ويدوم بقاؤها مرتبطًا بتمسّك الأمة بقيم الإحسان، والتقوى، والشكر، وتزول بزوالها[1]. وبناءً على هذا، لا تعود القيم الخُلُقية والأفعال الإنسانية مجرّد سلوكيات ذاتية معزولة، بل هي الشروط التكوينية التي تشكّل مصير المجتمع وتحدد عواقبه، ما يجعل حركة التاريخ وصناعة المستقبل رهنًا بما يغيّره الإنسان في أعماق نفسه أولاً.

١ - محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١١ ، ص٣١٣.

ولهذا، فإنّ القرآن لا يفسّر سقوط الأمم بعامل واحد مغلق، كما تفعل بعض القراءات الاقتصاديّة أو السياسيّة للتاريخ، بل يربط بين عناصر متعدّدة تتداخل داخل البنية الاجتماعيّة نفسها. فقوم عاد مثلاً لم يسقطوا بسبب ضعف ماديّ، بل لأنّ القوّة تحوّلت عندهم إلى أداة للاستعلاء والبطش، حتى أصبح الشعور بالتفوّق سببًا لفقدان القدرة على رؤية حدودهم الحقيقيّة. وكذلك لم يكن (فرعون) مجرّد حاكم ظالم، بل نموذجًا لنظام كامل يقوم على احتكار الحقيقة وتسخير القوّة لإعادة تشكيل وعي الناس: ﴿**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ**﴾ [الزخرف: ٥٤].

ومن هنا، لا تكون السُّنَن قوانين ماديّة صمّاء، ولا أحكامًا مجرّدة عن الواقع، بل علاقات حيّة تربط بين الداخل والخارج، وبين القيم والبنية الاجتماعيّة، وبين الاختيارات الصغيرة والمصائر الكبرى. ولذلك، فإنّ الظلم في القرآن ليس مجرّد خطأ خُلُقيّ، بل قوّة تترك أثرها في حركة المجتمع كلّه، كما أنّ الإصلاح ليس مجرّد فضيلة فرديّة، بل هو عنصر يغيّر اتجاه المسار التاريخيّ.

وفي هذا السياق، يصبح من الضروري التمييز بين السُّنَن والجبر. فثبات السُّنَن لا يعني أنّ الإنسان مسلوب الإرادة، بل يعني أنّ أفعاله ليست بلا نتائج. فالإنسان حُرّ في اختياراته، لكنّه ليس حرًّا في إلغاء آثار هذه الاختيارات بعد تحقّق شروطها. ولذلك فإنّ إدراك السُّنن لا يقود إلى الاستسلام، بل إلى وعي أعمق بالمسؤوليّة؛ لأنّ التاريخ، في المنظار القرآنيّ، أمرٌ يشارك الإنسان في صناعته.

كما ينبغي التمييز بين السُّنَن والمعجزة، فالمعجزة حدث استثنائي يخرق المألوف في سياق خاص، أمّا السُّنَن فهي القاعدة العامة التي تتحرّك ضمنها حياة الإنسان والمجتمعات. والقرآن الكريم حين يدعو إلى النظر في التَّاريخ، لا يوجّه الإنسان نحو الاستثناءات، بل نحو القوانين التي تتكرّر آثارها كلّما تكرّرت شروطها.

وبذلك، لا يعود الحدث التَّاريخي في القرآن مجرّد واقعة منفصلة، بل يتحوّل إلى نافذة

تكشف القانون الذي يعمل خلفه. وهكذا ينتقل القارئ من متابعة ما وقع إلى فهم ما يجعل الوقوع ممكنًا، ومن الانشغال بالحادثة إلى إدراك منطق الحركة الذي تنتظم داخله حياة المجتمعات ومصائرها.

رابعًا: القرآن وإعادة تعريف الزَّمن التَّاريخي

من أكثر ما يلفت الانتباه في عرض القرآن للتَّاريخ أنّه لا يمنح الزَّمن الموقع المركزي الذي اعتاده الإنسان في الكتابة التَّاريخية التقليدية. فالأحداث لا تُرتَّب دائمًا بحسب تعاقبها، وكثير من القصص يُعرض خارج التَّسَلْسُل الزمني، كما تغيب تفاصيل تُعَدّ أساس في بناء الرواية التَّاريخية، مثل تحديد السنوات، وتعاقب الملوك، والتَّسَلْسُل السياسي الدقيق. وهذا الغياب ليس فراغًا في السَّرد، بل جزءًا من الطريقة التي يعيد بها القرآن تعريف الزَّمن نفسه داخل الفهم التَّاريخي.

فالزَّمن، في الكتابة التَّاريخية المعتادة، هو الخيط الذي تنتظم به الوقائع؛ إذ تُفهم الأحداث من خلال موقعها داخل التَّسَلْسُل، ماذا وقع أوّلًا؟ وما الذي جاء بعده؟ وكيف تطوّر الحدث عبر الزَّمن؟ أمّا في القرآن، فإنَّ مركز الثَّقل لا ينتقل عبر التَّسَلْسُل الزمني، بل عبر البنية والعاقبة. ولذلك، لا يكون السؤال الأهم هو متى وقع الحدث؟ بل ما الذي يكشفه هذا الحدث؟ وما القانون الذي يظهر من خلاله؟

ومن هنا، لا يُلغى الزَّمن في القرآن، لكنه يفقد مركزيته المطلقة. فالحدث لا يكتسب أهميته من موقعه في الخط الزمني بقدر ما يكتسبها من موقعه داخل البنية السُّنِّيّة. ولهذا، يمكن أن تُعرض قصة واحدة في أكثر من سورة، وفي كلّ مرّة تُقدَّم من زاوية مختلفة؛ لأنَّ المقصود ليس إعادة تركيب الزَّمن، بل إعادة كشف المعنى.

وتظهر هذه الرؤية بوضوح في قصة موسى عليه السلام و(فرعون). فالقرآن لا يقدّم القصة بوصفها سردًا متتابعًا لمسار سياسيّ بين نبيّ وحاكم، بل يوزّعها على مواضع متعدّدة، بحيث يبرز

في كلّ موضع جانب من منطق الصِّراع نفسه. فمرّة يركّز على الاستكبار، ومرّة على صناعة الخوف، ومرّة على تزييف الوعي، ومرّة على لحظة الانهيار حين يتحوّل الغرور إلى عجز كامل أمام الحقيقة. وبهذا، لا تبقى القصة مرتبطة بزمنها الخاص، بل تتحوّل إلى نموذج متكرّر لعلاقة القوّة بالحقّ.

ولهذا أيضًا، يوجّه القرآن النظر باستمرار إلى «العاقبة». فالعاقبة ليست مجرّد نهاية زمنيّة للأحداث، بل اللحظة التي تنكشف فيها حقيقة المسار كلّه. ويظهر البعد الاعتباري في استحضار القرآن للماضي في قوله تعالى: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ**﴾ [الروم: ٤٢]، فلا ينحصر التبصّر في مصائر الأمم السابقة بمجرد الوقوف على الأطلال والآثار، أو المعرفة السطحية بنهاياتهم، بل هو حراك عقليّ عميق يتجاوز ظاهر الحدث إلى جوهر دلالته. وهذا ما رسّخه (الشيخ الطوسي) في تفسيره؛ حيث لم يقف عند حدود الرؤية البصرية، بل حمل "النظر" على "التفكير والتأمل" في أحوال الأمم الماضية التي غلب عليها الإشراك، وكيف قادهم مسارهم إلى الهلاك والدمار رغم قلة المؤمنين بينهم[1]. وبناءً على هذا التوجيه، يصبح استحضار التاريخ أداة لبناء الوعي والاعتبار؛ فالنهايات والمصائر ليست مجرد حوادث زمنية انقضت، وإنما هي مفاتيح لفهم القوانين والمسارات التي أفضت إليها.

ومن خلال هذا المنطق، يتحرّر الماضي من كونه زمنًا مغلقًا. فالقرآن لا يريد من الإنسان أن يقف أمام التاريخ بوصفه متفرّجًا على عالم انتهى زمانه، بل أن يدرك أن ما جرى يمكن أن يتكرّر كلما تكرّرت شروطه. ولذلك، تبدو الأمم السابقة في القرآن أقرب إلى نماذج حيّة منها إلى شخصيات بعيدة في أرشيف الزمن. فقصة قوم نوح – مثلاً - لا تُستحضر فقط باعتبارها مواجهةً كبرى بين النبوّة والتكذيب، بل بوصفها كشفًا عن بطء التحوّلات العميقة

١ - محمد بن الحسن الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، ج٨ ، ص٢٥٨.

في المجتمعات، وعن ميل الإنسان إلى مقاومة التغيير حتى وهو يرى مقدّمات الانهيار تتشكّل أمامه.

كما أن تفكيك الخطّ الزمني التقليدي يمنع القارئ من التعامل مع الماضي بوصفه «مرحلةً انتهت». فحين يُقدَّم التاريخ بوصفه سلسلة مغلقة من الأحداث، يسهل النظر إليه باعتباره شيئًا منفصلاً عن الحاضر. أمّا في القرآن، فإنَّ غياب هذا التسلسل الصارم يعيد وصل الماضي بالحاضر عبر السُّنَن. فالأسماء تتغيّر، لكن البنى نفسها تتكرّر، والوجوه تختلف، لكن منطق الاستكبار أو الفساد أو الإصلاح يبقى قادرًا على الظهور في كلّ زمن.

ومن هنا، لا يكون الزمن في القرآن مجرّد إطار تتحرّك داخله الأحداث، بل هو جزء من الرؤية نفسها. فالقرآن لا يقدّم التاريخ باعتباره حركةً خطّيّةً تتقدّم باستمرار، ولا باعتباره دورانًا عبثيًّا يتكرّر بلا معنى، بل باعتباره مجالاً تتحرّك فيه المجتمعات ضمن سُنَن تكشف أنّ المصائر ترتبط بما تبنيه الأمم داخلها من قيم وخيارات وبنى.

وبذلك، يعيد القرآن تعريف الزمن التاريخي من جذوره. فالزمن لا يعود مجرّد تعاقب للأيام والوقائع، بل يصبح فضاءً تنكشف فيه العلاقة بين الفعل والعاقبة. ومن هنا، لا تكون قيمة الماضي في بُعده الزمني، بل في قدرته على كشف ما يبقى فاعلاً خلف الزمن نفسه. فالسُّنَن هي التي تحكم حركة الإنسان، والتي تجعل التاريخ قابلاً للفهم.

خامسًا: القصص القرآنيّة بوصفها نموذجًا سُننيًّا

حين يقرأ الإنسان القصص القرآنيّة بوصفها مجرّد حكايات عن الماضي، فإنّه يظلّ مأسورًا للحدث، حتى لو تأثّر بها وجدانيًّا أو خُلُقيًّا. أمّا حين تُقرأ في ضوء السُّنَن، فإنّ القصة تتحوّل من خبر عن قوم مضوا إلى نموذج يكشف كيف تتحرّك المجتمعات، وكيف تتكوّن المصائر داخل التاريخ. ومن هنا، لا تكون أهمّيّة القصص القرآنيّة في كثرة الوقائع التي ترويها، بل في الطريقة التي تعيد من خلالها بناء فهم الإنسان للواقع والحركة الاجتماعيّة.

ومن هنا، فإنّ حضور أخبار الأمم والماضين في القرآن لا يعني أن الخطاب القرآني يتّجه إلى تقديم التاريخ بوصفه علمًا مستقلاً غايته استيفاء الوقائع وتوثيق تفاصيلها، بل تبقى المادة التاريخيّة داخلة في الغاية الهدايتيّة العامّة للقرآن. ويظهر هذا المعنى في قوله تعالى في وصف الكتاب: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]. وقد استند (الشيخ محمد جواد مغنية) إلى هذا الوصف في تحديد وظيفة القرآن، فقال: "قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ فيه دلالة واضحة على أنَّ القرآن لا يلتمس فيه علم التاريخ، ولا الفلسفة، ولا العلوم الطبيعيّة والرياضيّة، وما إليها، وإنّما يلتمس فيه هداية الإنسان، وإرشاده إلى صلاحه وسعادته في الدارين"[1]. وعلى هذا الأساس، لا تكون قيمة استحضار الماضي في القرآن متوقّفةً على مقدار ما يقدّمه من تفاصيل تاريخيّة، بل على ما تؤدّيه تلك الأحداث داخل الغاية الهدايتيّة للخطاب، وما تكشفه للإنسان من دلالات تتجاوز حدود الواقعة نفسها.

ولهذا، لا يركّز القرآن في قصصه على التفاصيل التي تشغل المؤرّخ عادة، بل على البنية التي تكشف منطق الفعل والنتيجة. فالقصة القرآنيّة لا تبدأ من الحدث بوصفه معزولاً، بل من التحوّل الداخلي الذي يقود إليه. ولذلك، يبدو واضحًا أن القرآن يهتمّ بما يجري داخل الإنسان والمجتمع أكثر من اهتمامه بوصف المظاهر الخارجيّة للأحداث.

وتظهر هذه البنية بوضوح في قصة (فرعون). فالقرآن لا يقدّمه فقط باعتباره حاكمًا متجبّرًا، بل بوصفه نموذجًا لنظام قِوامه السيطرة على الوعي قبل السيطرة على القوّة. ولذلك، لا يركّز النص القرآني على حجم الدولة أو اتساع النفوذ بقدر ما يركّز على الآليّة التي يعمل بها الاستكبار نفسه ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]. فالمشكلة هنا لا تتعلّق بشخص (فرعون) وحده، بل ببنية كاملة يصبح فيها الإنسان قابلاً للخضوع حين يُفرَّغ وعيه ويُعاد تشكيل إدراكه. ومن هنا، لا تبدو نهاية (فرعون) حادثة تخصّ الماضي فقط، بل عاقبة

١ - محمد جواد مغنية: التفسير الكاشف، ج١، ص٣٨..

تتكرّر كلّما تحوّلت القوّة إلى وسيلة لإلغاء الحقيقة.

وفي قصّة (عاد) يظهر نموذج مختلف. فالقوم لم يكونوا ضعفاء أو متخلّفين، بل كانوا أصحاب قوّة وعمران ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾ [فصلت: ١٥]. لكن القرآن يكشف أنَّ المشكلة لم تكن في امتلاك القوّة، بل في تحوّل القوّة إلى شعور بالاستغناء. وهنا تصبح الحضارة نفسها جزءًا من الأزمة حين تفقد قدرتها على رؤية حدودها الخُلُقيّة والإنسانيّة. ولذلك، لا يأتي الانهيار بوصفه عقوبة منفصلة عن الواقع، بل نتيجةً تنمو داخل البنية نفسها حتى تصل إلى لحظة السقوط.

أما قصّة بني إسرائيل بعد نجاتهم من (فرعون)، فتكشف بُعدًا آخر من السُّنن التاريخيّة. فالخروج من الاستضعاف لا يعني بالضرورة امتلاك الوعي القادر على بناء مرحلة جديدة. ولذلك، يعرض القرآن حالة التردّد والاضطراب والحنين إلى الأنماط القديمة، حتى بعد تحقّق النجاة. فالمشكلة هنا ليست في غياب المعجزة، بل في عجز الوعي عن التحرّر الكامل من آثار البنية القديمة. ومن هنا، لا تتحوّل القصّة إلى حديث عن جماعة تاريخيّة فقط، بل إلى نموذج يبيّن أن تغيير الواقع لا يكتمل بمجرّد سقوط الظلم، بل يحتاج إلى إعادة بناء الإنسان والمجتمع نفسه.

وفي قصّة نوح عليه السلام تتجلّى سُنّة أخرى تتعلّق بعلاقة الزمن بالتغيير. فالقرآن يعرض نبيًّا يدعو قومه زمنًا طويلاً دون استجابة واسعة، بما يكشف أن التحوّلات العميقة في المجتمعات لا تحدث دائمًا بسرعة، وأنَّ مقاومة التغيير قد تستمرّ حتى مع وضوح الحقيقة. ولذلك، لا تكون أهمية القصّة في عدد السنوات أو تفاصيل الأحداث، بل في كشف طبيعة الصراع الطويل بين الرسالة والبنية الاجتماعيّة الرافضة للتغيير.

ومن خلال هذه النماذج، يبدو واضحًا أنَّ القصص القرآنيّة لا تتحرّك داخل منطق «الحكاية»، بل داخل منطق «النموذج». فالأشخاص والأقوام لا يُعرضون لذواتهم، بل لما

تمثّله تجاربهم من قوانين قابلة للفهم والتكرار. ولذلك، لا يكون المقصود من القصة أن يتذكّر الإنسان ما وقع فقط، بل أن يرى كيف تتشكّل العواقب داخل المجتمعات، وكيف تتحوّل الاختيارات الصغيرة مع الزمن إلى مصائر كبرى.

ولهذا، فإن القصص القرآنيّة لا تضع القارئ في موقع المتفرّج على الماضي، بل في موقع المعنيّ به؛ لأنَّ السُّنَن التي كشفتها هذه القصص لا تنتمي إلى زمن خاص، بل تبقى فاعلة كلّما تكرّرت شروطها. ومن هنا، تتحوّل القصّة من خبر عن الآخرين إلى سؤال موجّه إلى الإنسان نفسه، أين يقف داخل هذه السُّنَن؟ وأيّ مسار يبني من خلال أفعاله واختياراته؟

وبذلك، لا تعود القصص القرآنيّة مجرّد وسيلة للتذكير أو الوعظ، بل تصبح بناءً معرفيًّا يعيد تشكيل طريقة فهم التاريخ والإنسان والمجتمع. فالقصّة في النهاية، ليست ما حدث فقط، بل ما يكشف كيف يحدث التاريخ أصلاً.

سادسًا: الماضي بوصفه أداة لبناء المستقبل

إذا كان القرآن يعرض الماضي بوصفه نماذجَ تكشف السُّنَن التي تتحرّك من خلالها المجتمعات، فإنَّ وظيفة هذا الماضي لا تتوقّف عند حدود الفهم النظري أو التأمّل في مصائر الأمم السابقة، بل تتجاوز ذلك إلى بناء وعي يمكن من خلاله قراءة الحاضر واستشراف المستقبل. فبما أنّ الماضي في الرؤية القرآنيّة ليس مساحةً منفصلةً عن الإنسان، بل تجربةً ممتدّةً تكشف له ما يمكن أن يحدث كلّما تكرّرت الشروط نفسها، فلا يوجّه القرآنُ الإنسانَ إلى الماضي بوصفه عالماً منتهيًا، بل بوصفه مجالاً للتبصّر. ومن هنا، تأتي الدعوة المتكرّرة إلى «السير في الأرض» و«النظر في عواقب السابقين». فالسير لا يُطلب من أجل مشاهدة الآثار فقط، بل من أجل إدراك العلاقة بين البنية والعاقبة، وبين المسار والنتيجة. ولذلك، لا يتحوّل الماضي في القرآن إلى موضوع للحنين أو التمجيد، بل إلى أداة لفهم قوانين الحركة داخل التاريخ.

ومن هنا، لا تكون الدعوة القرآنيّة إلى السير في الأرض مجرّدَ دعوة إلى مشاهدة آثار السابقين أو تحصيل المعرفة بأخبارهم، بل تتّجه إلى تحويل هذه المشاهدة إلى فعل من التفكير والاعتبار. ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [العنكبوت: ٢٠] وقد عبّر (الشيخ الطبرسي) عن هذا المعنى في تفسير الآية بقوله: "وتفكّروا في آثار من كان فيها قبلكم وإلى أيّ شيء صار أمرهم لتعتبروا بذلك"[1]. فالنظر في آثار الماضي لا يقف، وفق هذا الفهم، عند حدود معرفة ما وقع، بل يتجاوزها إلى التفكير في المصير الذي انتهى إليه السابقون والاعتبار به، وبذلك يتحوّل الماضي من موضوع للمعرفة التاريخيّة المجرّدة إلى أداة لبناء الوعي بالحاضر والمسار الذي يمكن أن ينتهي إليه.

وفي هذا السياق، يصبح التاريخ نوعًا من الوعي بالمآلات. فالإنسان قد يُخدع بالقوّة المؤقّتة، أو بالاستقرار الظاهري، أو بالنجاح السريع، لكنّ العاقبة تكشف ما إذا كانت البنية التي يقوم عليها هذا الواقع قابلة للاستمرار أم أنّها تحمل أسباب انهيارها في داخلها.

وبناءً على هذا، فإنَّ قراءة الماضي في القرآن لا تهدف إلى إنتاج شعور بالتفوّق على الأمم السابقة، بل إلى بناء حسّ نقدي تجاه الحاضر نفسه. فقصّة (فرعون) مثلاً لا تُستحضر لكي يطمئن الإنسان إلى أنّ الطغيان انتهى، بل لكي يدرك أنّ الاستكبار يمكن أن يعيد إنتاج نفسه بأشكال جديدة كلّما اجتمعت شروطه. وكذلك لا تُعرض قصص المجتمعات المنهارة باعتبارها استثناءات بعيدة، بل باعتبارها تنبيهًا إلى أنّ الانهيار يبدأ غالبًا من الداخل قبل أن يظهر في صورته الخارجيّة.

ومن هنا، فإنَّ القرآن لا يربط المستقبل بالمجهول المنفصل عن الواقع، بل يربطه بالسُّنَن التي تتحرَّك داخل الواقع نفسه. فالمستقبل ليس مجهولاً بالكامل؛ لأنَّ المجتمعات تتحرَّك

١ - الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن ، ج٨، ص١٦.

ضمن قوانين يمكن للإنسان أن يقرأ آثارها واتجاهاتها. وهذا لا يعني القدرة على التنبّؤ التفصيليّ بالأحداث، بل القدرة على فهم طبيعة المسارات: كيف ينمو الظلم؟ وكيف يتحوّل الفساد إلى بنية؟ وكيف تفقد المجتمعات قدرتها على الإصلاح؟ وكيف يمكن لفكرة صغيرة أو موقف خُلُقيّ أن يغيّر اتجاهًا كاملاً في التاريخ؟

وفي هذا المعنى، يصبح الماضي أداة لتوسيع وعي الإنسان بالزمن. فهو لا يعيش داخل لحظته الضيّقة فقط، بل يرى أنَّ ما يمرّ به هو جزء من حركة أوسع تتكرّر فيها الأنماط بأشكال مختلفة. ولذلك، لا يعود التاريخ مادة للحفظ، بل يتحوّل إلى قدرة على قراءة الواقع الحاضر بطريقة أعمق وأكثر وعيًا. كما أنَّ هذا الفهم يحرّر الإنسان من وَهْمين متناقضين، وَهْم الاطمئنان المطلق إلى الحاضر، ووَهْم اليأس الكامل من إمكان التغيير. فالسُّنَن القرآنيّة تكشف أنَّ الانهيار لا يحدث فجأة، لكنّه أيضًا ليس قدرًا لا يمكن مقاومته. ولذلك، يبقى المستقبل مفتوحًا بقدر ما تبقى قدرة الإنسان على مراجعة مساره وتغيير شروطه قائمة.

ومن هنا، فإنَّ القرآن لا يستحضر الماضي ليعيد الإنسان إلى الوراء، بل ليدفعه إلى الأمام. فالمقصود من التاريخ ليس أنْ يعيش الإنسان داخل ما مضى، بل أنْ يفهم من خلاله موقعه داخل حركة الزمن. ولهذا، يتحوّل الماضي في الخطاب القرآنيّ من «ذاكرة» إلى «بصيرة»، ومن أحداث انتهت إلى معرفة تساعد الإنسان على إدراك ما يبنيه اليوم، وما يمكن أن ينتهي إليه غدًا.

وبذلك، يكون التاريخ في القرآن جزءًا من بناء الإنسان نفسه؛ لأنَّ الإنسان الذي يفهم السُّنَن لا ينظر إلى الحاضر بوصفه لحظة معزولة، ولا إلى المستقبل بوصفه غيبًا مغلقًا، بل يرى أنَّ ما تصنعه المجتمعات اليوم يتحوّل مع الزمن إلى عاقبة تكشف حقيقة المسار الذي اختارته.

سابعًا: ملامح الوعي التاريخيّ السُّنَني

ينتهي المنهج القرآنيّ في قراءة التاريخ إلى بناء نوع خاص من الوعي. وعي لا يكتفي بمعرفة الوقائع، بل يحاول فهم القوانين التي تتحرّك من خلالها حياة الإنسان والمجتمعات.

ومن هنا، يمكن الحديث عن «وعي تاريخيّ سُنَنيّ» يختلف عن النظرة التي ترى التاريخ مجرّد تراكم للأحداث أو سلسلة من الصدف والتحولات المعزولة. ولهذا الوعي ملامح أصبحت واضحة بما تقدّم، نجمعها في السياق الآتي:

أوّل ملامح هذا الوعي أنَّه وعي يبحث عن المعنى لا عن الخبر وحده. فالإنسان قد يعرف تفاصيل كثيرة عن الماضي، لكنَّه يبقى عاجزًا عن فهمه إذا توقّف عند سطح الوقائع. أمَّا القرآن، فيدفع القارئ باستمرار إلى تجاوز الحدث نحو ما يكشفه. ولذلك، لا يوجّه النظر إلى «ما وقع» فقط، بل إلى «كيف تشكّل» و«لماذا انتهى» و«ما الذي قاد إليه». ومن هنا، يتحوّل التاريخ من مادة للحفظ إلى مجال للتفكير والتحليل.

والملمح الثاني أنَّ هذا الوعي يربط بين الأخلاق والتاريخ ربطًا بنيويًّا، لا وعظيًّا. فالظلم في القرآن ليس مجرّد خطأ خُلُقيّ فرديّ، بل قوّة تترك أثرها في حركة المجتمع كلّه. والاستكبار ليس حالة نفسية معزولة، بل طريقة في بناء السلطة والعلاقة مع الناس والواقع. والإصلاح ليس شعارًا خُلُقيًّا فقط، بل عنصرًا يغيّر اتجاه المسار التاريخيّ. ولذلك، لا تبدو القيم في القرآن منفصلة عن الواقع، بل جزءًا من القوى التي تصنعه.

ويظهر هذا المعنى بوضوح في الطريقة التي يعرض بها القرآن مصائر الأمم. فالهلاك لا يأتي فجأة من فراغ، بل ينمو داخل البنية نفسها، حين يتحوّل الظلم إلى نظام، أو حين تفقد المجتمعات قدرتها على رؤية أخطائها، أو حين تصبح القوة وسيلة لإلغاء الحقيقة بدل حمايتها. ومن هنا، لا تكون العاقبةُ حادثةً منفصلةً عن المسار، بل نتيجةً طبيعيةً لما تراكم داخله عبر الزمن.

أما الملمح الثالث فهو أن هذا الوعي يوازن بين القانون والاختيار؛ يؤكّد القرآن وجود سُنَن ثابتة تحكم حركة التاريخ، لكنَّه في الوقت نفسه لا يلغي دور الإنسان ومسؤوليته.

فلا يقتصر الخطاب القرآني على عرض العلاقة بين الفعل والنتيجة في صور جزئية، بل يكشف عنها بوصفها قانونًا يتجاوز خصوصية الحادثة إلى حركة المجتمعات بصورة عامة.

ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. وقد لفت (الشيخ ناصر مكارم الشيرازي) إلى البُعد العام في الآية، فقال: "تبيّن الجملة (إنّ الله لا يغيّر ما بقوم) والتي جاءت في موردين متفاوتين في القرآن الكريم، أنّها قانون عام، قانون حاسم ومنذر! هذا القانون الذي هو واحد من القوانين الأساس لعلم الاجتماع في الإسلام، يقول لنا: إنّ ما يصيبكم هو من عند أنفسكم، وما أصاب القوم من السعادة والشقاء هو ممّا عملت أيديهم"[1]. وبهذا تصبح العلاقة بين الداخل الاجتماعي والمصير الخارجي جزءًا من منطق الحركة التاريخية نفسها؛ إذ لا تظهر أحوال الأمم وعواقبها منفصلة عن إرادتها وأفعالها، بل تتشكّل في ضوء ما تبنيه داخلها من شروط واتجاهات.

ومن هنا، فإن إدراك السُّنَن لا يقود إلى الاستسلام، بل إلى شعور أعمق بالمسؤولية؛ لأنَّ الإنسان في التصور القرآني لا يعيش خارج التاريخ، بل يشارك في صناعته. ولذلك، لا يكون السؤال الأساس: ماذا سيحدث لنا؟ بل: ما الذي نبنيه الآن؟ وما العاقبة التي تقود إليها اختياراتنا؟

كما يتميّز هذا الوعي بأنَّه يتجاوز الشخصنة في قراءة التاريخ. فالقراءة السطحية غالبًا ما تختزل الأحداث في الأفراد: قائد قوي، وحاكم ظالم، وجماعة منتصرة أو مهزومة. أمَّا القرآن، فعلى الرغم من استحضاره الواضح للشخصيات، يوجّه النظر إلى البنى الأعمق التي تتحرّك من خلالها هذه الشخصيَّات؛ إذ ليس (فرعون) مجرّد فرد متجبّر، بل هو نموذج لبنية استكبارية يمكن أن تتكرّر بأسماء مختلفة. وليس موسى عليه السلام مجرّد بطل تاريخي، بل هو نموذج لمواجهة الحقّ لمنطق القوَّة حين يتحوّل إلى أداة للهيمنة.

ومن خلال هذا كلّه، يصبح التاريخ في القرآن مدرسة لبناء الوعي، لا مجرّد مساحة للمعرفة. فليس المقصود أن يخرج الإنسان محمّلاً بالمعلومات عن الأمم السابقة، بل أن

١ - ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٧، ص٣٥٦ وما بعدها.

يمتلك قدرة أعمق على قراءة الواقع وفهم الاتجاهات واكتشاف ما يتشكّل داخل المجتمعات قبل أن يظهر في صورته النهائية.

وبذلك، لا يكون الوعي التاريخي السُّنَني مجرد طريقة لفهم الماضي، بل طريقة لفهم الإنسان والمجتمع نفسه؛ لأنَّ الإنسان لا يصنع الأحداث فقط، بل يصنع — من خلال أفعاله واختياراته — العواقب التي يعود التاريخ ليكشفها.

خاتمة

يقدّم القرآن الكريم التاريخ على أساس يجعله مجالاً لفهم القوانين التي تتحرّك من خلالها حياة الإنسان والمجتمعات. ومن هنا، لا تكون قيمة الحدث في ذاته، بل في ما يكشفه من علاقة بين الفعل والعاقبة، وبين البنية الداخلية للمجتمع والمصير الذي ينتهي إليه.

ولهذا، لا يبدو غياب التسلسل الزمني التفصيلي في القرآن نقصًا في عرض التاريخ، بل جزءًا من طبيعة الرؤية القرآنيّة نفسها. فالقرآن لا يريد أن يحبس الإنسان داخل الماضي بوصفه زمنًا انتهى، بل أن يحرّره من سطح الحدث إلى فهم السُّنَن التي تجعل التاريخ قابلاً للفهم والتكرار. وهكذا تتحوّل القصة القرآنيّة من حكاية عن قوم مضوا إلى نموذج يكشف كيف تتشكّل القوة، وكيف ينمو الظلم، وكيف تبدأ المجتمعات بالانهيار من داخلها قبل أن يسقط بناؤها الخارجي.

وفي ضوء ذلك، يظهر التاريخ في القرآن بوصفه بناءً معرفيًّا لا أرشيفًا للذاكرة. فالماضي لا يُستحضر لكي يُعاد تذكّره فقط، بل لكي يساعد الإنسان على قراءة الحاضر واستشراف المستقبل. ولذلك، لا تكون السُّنَن الإلهيّة قوانين نظريّة معزولة، بل منطقًا يكشف أن المصائر لا تنفصل عن المقدّمات، وأن المجتمعات تبني عواقبها من داخل اختياراتها وقيمها وأنماط علاقتها بالحق والعدل والقوة.

ومن هنا أيضًا، لا ينتهي التاريخ القرآني عند حدود التأمّل أو الوعظ، بل يتحوّل إلى مسؤوليّة؛ لأنَّ الإنسان، حين يدرك أن التاريخ لا يتحرّك في فراغ، يصبح أكثر وعيًا بما يصنعه داخل واقعه، وأكثر إدراكًا أنَّ ما يبدو اليوم تفصيلاً صغيرًا قد يتحوّل مع الزمن إلى مسار كامل وعاقبة كبرى.

وبذلك، فإن الانتقال من منطق الحدث إلى منطق السُّنَن ليس مجرّد تغيير في طريقة قراءة الماضي، بل تغييرًا في طريقة فهم التاريخ نفسه. فالتاريخ في الرؤية القرآنيّة ليس سلسلة وقائع مضت وانتهت، بل تجربة إنسانيّة مفتوحة تكشف أنَّ الزمن لا يحتفظ بالأحداث فقط، بل يكشف — مرّة بعد مرّة — القوانين التي تكمن خلفها.

ولهذا، تبقى الآية القرآنيّة ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٧] ليست مجرّد إشارة إلى أُمم سابقة، بل دعوة دائمة إلى النظر في ما يتكرّر داخل التاريخ، وإلى إدراك أن الإنسان لا يعيش خارج هذه السُّنَن، بل في داخلها، وأنَّ فهمها ليس معرفة بالماضي فقط، بل وعيًا بالحاضر ومسؤوليّة تجاه المستقبل.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- السيد أبو القاسم الخوئي: البيان في تفسير القرآن، بيروت، دار الزهراء، ط٤، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- السيد محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنيّة، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، لا ط، لا ت.
- العلامة الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، بيروت، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- الشيخ الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، بيروت، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- الشيخ الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: الشيخ أحمد حبيب قصير العاملي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، لا ط، لا ت.
- الشيخ محمد جواد مغنية: التفسير الكاشف، بيروت، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨١م.
- الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.